الأستاذ الدكتور محمد غورماز
رئيس معهد التفكر الإسلامي
المعرفة في الإسلام : رؤية توحيدية
2020/08/08 | تركيا- أنقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله والحمدلله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد المعلم الأول ، الذي كان أول ما نزل عليه : اقرأ باسمك ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ..

أما بعد..

أيها الإخوة الكرام

لو نظرنا إلى أقطار الأرض في شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، لا يمكن لنا أن نجد حضارة تبجّل العلم والمعرفة مثل الحضارة الإسلامية. فإننا نجد الكلام عن العلم والحض عليه وتقدير حامله في كل أدبياتنا وعلى رأسها الكتاب والسنة ، فالآيات في المجال كثيرة جدا ومعظمكم يعرفها ، والأحاديث تعصى على العاد أو المحصي . بل إن الحضارة الإسلامية جعلت اسم المرحلة التي تسبق الإسلام مرتبطاً بغياب العلم والمعرفة ، فكان اسم "الجاهلية" معبراً تعبيرا واضحاً عن كون الإسلام يهدف إلى نقل الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة.

والفكر الإسلامي الأصيل في الكتاب والسنة لا يفرّق بين مجالات العلوم والمعرفة بل يضع النظرة الشمولية أو التوحيدية نصب عيني أي داخل إلى هذا المجال ، ذلك أن موضوع الكتاب والسنة في الأساس ليس الأحكام الشرعية أو غيرها من المجالات التي تُذكر في هذا السياق وإنما موضوعهما : الإنسان والكون .

وما مادام موضوع الوحي الأساسي من كتاب وسنة هو الإنسان والكون ، فنحن محتاجون إذن إلى العلوم التي تفهم الإنسان وتفهم الكون لنستطيع فهم الوحي الشريف بشكل صحيح ، وبالتالي فالعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية هي جزء من منهج الحضارة الإسلامية في فهم الوحي ولا يمكننا التفريق بين هذه العلوم وبين العلوم التي نسميها عادة بالعلوم الشرعية. ونقطة الانقطاع التي بدأ بها انهيار المنظومة المعرفية الإسلامية هي النقطة التاريخية التي بدأنا فيها بتصنيف العلوم إلى علوم إسلامية وعلوم غير إسلامية، ثم تركنا تلك العلوم "غير الإسلامية" بحجة كونها غير ذات فائدة لنا كمسلمين .

والحقيقة أيها الإخوة الكرام .. أنه ليس هناك عندنا في الفكر الإسلامي تصنيف للعلوم باعتبارها علوماً إسلامية وعلوماً غير إسلامية , أو شرعية وغير شرعية ، أو نقلية وعقلية.. فالنظرة الشمولية في الفكر الإسلامي تجمع بين الإنسان والوحي المنظور (الكون) والوحي المسطور (الكتاب) في سلة علوم واحدة.

حتى أن الآيات التي نتلوها ونقصد منها مدح العلوم الشرعية لا تتكلم في معظمها عن ما نسميه اليوم بالعلوم الإسلامية ، خذوا مثالاً قول الله تعالى " إنما يخشى الله من عباده العلماء " لو نظرنا إلى سياقها وسباقها لوجدنا أنها تتحدث عن العلوم الطبيعية :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ

وقوله تعالى :

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ

وقوله تعالى :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

وقوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

كل هذه الأيات وغيرها مما يذكره معظم المسلمين في سياق مدح ما نسميه بالعلوم الشرعية هي في الأساس مدح للعلوم الطبيعية أو لنقل العلوم المتوجهة إلى فهم الكون والطبيعة والسماوات والإنسان ، وهذا أيها الإخوة الكرام لا يقلل من قيمة العلوم المتوجهة لفهم الوحي المكتوب ، لكن النقطة التي أود أن أركز عليها هنا هي أن هذه العلوم الطبيعية هي أيضا علوم مطلوبة ولازمة ضمن المنهج المعرفي الإسلامي .

أيها الإخوة الكرام ,,

إن ظهور العلوم المتعلقة بالوحي مثل علوم القراءات والفقه والتفسير والكلام والحديث أمر طبيعي جداً ، سواء المتعلق منها بموضوع ثبوتية الوحي أو دلالته، لكن المسلمين لم يقصروا تفكيرهم على مثل هذه العلوم ، ففي عهد عمر رضي الله عنه فتح المسلمون العديد من البلدان ، وتحولوا من مدينة ينوف عدد سكانها عن 10 آلاف نسمة إلى امبراطورية عظيمة لا تحدها حدود، و تلاقوا في الفتح مع حضارات عريقة كانت لديها من العلوم والفلسفة الكثير ، بعضها كان ينتج المعرفة منذ ما يزيد عن ألفي عام ، بعضها كان يتكلم 30 لغة ويدين ب30 ديناً، فهل انكفئ المسلمون على أنفسهم وتقوقعوا على "علومهم" ؟! وهل انهار النظام المعرفي الإسلامي في مواجهة تلك العلوم والفلسفات ؟! إطلاقا، لقد حدث عكس هذا تماماً ، فقد انطلق المسلمون من منهجهم المعرفي الشمولي ، ليترجموا تلك الأعمال العلمية ، وينتجوا منها ويبنوا عليها ، ودمجوا تلك العلوم في مدارسهم وحلقاتهم وكتبهم ، وصبغوها بصبغتهم، سواء في حركة الترجمة الأولى مع ابن المقفع الذي ترجم

من الفارسية والهندية ، أو مع الحركة التالية لها مع بيت الحكمة الذي ترجم من اليونانية والسريانية وغيرها ، حتى لم يمكن للدارس أن يفرق بينها وبين العلوم المتوجهة للوحي من حيث الاهتمام والتركيز .

وبهذا المنهج الشمولي وبتلك الهمة العالية ، استطعنا أن ننشأ الحضارة الإسلامية في بلاد ما وراء النهر و الأندلس ومصر والهند ، مستوعبين علومها ، منتجين للمعرفة حول الطبيعة والكون والإنسان والوحي على حد سواء.

أيها الإخوة الكرام ..

لو حاولنا معاينة كتب تصنيف العلوم في حضارتنا الإسلامية مثل احصاء العلوم للفارابي ، مفاتيح العلوم للخوارزمي ، تراتيب العلوم لابن حزم، ومقدمة ابن خلدون ، وفهرست ابن النديم ، ومفتاح السعادة لطاشكبروزاده، لوجدنا ما يزيد على 25 كتاب في تصانيف العلوم ، وكلها دون استثناء يمضي على نفس المنهجية الشمولية الكلية .

بل إننا لو ركزنا على شخوص العلماء الذين كانوا لبنات أساسية في المعرفة الإسلامية مثل الفارابي والكندي وابن العربي والرازي وابن مسكويه وابن خلدون وغيرهم لوجدنا أنهم علماء موسوعيون كانت العلوم بالنسبة لهم ذات نبع واحد، فجمعوا بين علم الطبيعة والإنسان والوحي .

الإمام الغزالي قسم العلوم إلى علوم عقلية ونقلية ، لكن هذا التقسيم لم يمنعه من أن يقر بأنها كلها ضرورية ومهمة في البناء المعرفي ، يقول الإمام الغزالي في الإحياء:

"فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء"

ويقول أيضا:

" فعلى المتعلم ألا يدع فناً من فنون العلم ونوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً ، يطلع بها على غايته ومقصده وطريقته ، ثم إن ساعده العمر وواتته الأسباب طلب التبحر فيه ، فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معادياً لذلك العلم بسبب جهله به"

ويقول الإمام ابن حزم في هذا السياق:

" العلوم كلها متعلق بعضها ببعض ومحتاج بعضها إلى بعض"

أيها الإخوة الكرام ..

دعونا نعد إلى كتب تصانيف العلوم لنرسم خريطة لمجالات المعرفة في الحضارة الإسلامية ونجد أن العلوم في الحضارة الإسلامية أربعة أصناف :

1- العلوم الطبيعية : وهي العلوم التي نفهم بها سنن الله في الكون مثل الفيزياء والكيمياء وعلوم الأرض كالجيولجيا وعلوم السماء مثل علم الفلك وغيرها من العلوم .
2- علوم ما وراء الطبيعة : وهي الأمور التي لا تدرك بالحواس ولا بالتجارب ، ولا يمكن لشخص لم يفهم الطبيعة أن يفهم ما وراءها؟
3- العلوم الإنسانية : مثل علم النفس والاجتماع ، والاقتصاد والسياسة و العمران وغيرها من العلوم التي تقوم على فهم طبيعة الإنسان والمجتمع الإنساني .
4- العلوم النصية : أو العلوم المتوجهة لفهم الوحي : وتنقسم بدورها إلى علوم غاية وعلوم آلة مثل النحو والمنطق وغيرها ، ومن علوم الآلة أيضا نجد علوم المنهجية والتي لا نصل إلى الغاية إلا من خلالها .

أيها الإخوة الكرام..

يخبرنا الإمام التفتازاني في تعريفه لماهية العلم بأن كل علم يحتاج إلى ثلاثة أشياء ليصبح علماً : الحد والموضوع والغاية ، وفي بيت الشعر المشهور :

إن مـــــبادي كل فن عشرة الحد والموضوع ثم الثمره

وفضلـــــــه ونســـــــبته والـــــواضع والاسم الاستمداد حكم الشارع

مسائل والبعض بالبعض اكتفى ومن درى الجميع حاز الشرف

وهنا أود أن أنوه إلى نقطتين اثنتين من خلال عناصر هذه الأبيات وهما : النسبة والاستمداد ، فالنسبة تعني علاقة العلم بباقي العلوم الموازية ، والاستمداد يعني العلوم التي ولد منها العلم وما يولّده هو من علوم. مما يعني أن النسبة هنا هي العلاقة الأفقية مع العلوم، والاستمداد هو العلاقة العامودية مع العلوم، فالعلوم إذن شبكة واحدة لا ينفك بعضها عن بعض ولا يمكن أخذ بعضها دون بعض .

أيها الأخوة الكرام..

دعوني أختم كلامي قائلاً ، إن عودة الحضارة الإسلامية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعودة منهجيتها العلمية ، ولا يمكن لنا أن نعود للساحة الحضارية العالمية دون أن نكون حاضرين وبقوة في ساحة الإنتاج المعرفي ، وإلا فسنبقى مستهلكين للمعرفة والمنتج الحضاري ، ولن نكون باعتقادي مستحقين لأن نكون " خير أمة أخرجت للناس".

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمدلله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته